إمتحان كتابي في مقياس الأدب العربي والاستشراق الفوج 6

الأسئلة الردود 22 الإعدادات

13:10-14:40

نص السؤال: لقد رأى الاستشراق في الشعر الجاهلي المدخل الأنسب لفهم جوهر الحياة الروحية، والاجتماعية، والسياسية، والحضارية للعرب، والمترجم الصادق لهويتهم، لكن نقدهم كان مجحفا قاصرا في معظمه؛ فقد قاسوا العربية وشعرها على شعرهم، واتهموه بالنقص والتفكك، غير أن هذا الإجحاف لدى الأغلبية لم يمنع قطعًا من وجود دراسات جادة منصفة تناولت الشعر العربي بموضوعية، وحاولت فهمه بعيدًا عن النظرة الذاتية الاستباقية. *

تحدث عن هذه الدرسات (6/6 ن)

ومن تلك الدراسات المنهجية النقدية المنصفة دراسة للناقدة الأدبية المستشرقة الألمانية "ريناتة ياكوبي"، وقد تقاطعت المستشرقة الألمانية "ياكوبي" مع المستشرقة الأوكرانية "سوزان ستيتكيفيتش" في أنهما تناولتا -نص القصيدة العربية القديمة تناولًا كاملاً، يتلخص في معاينة النصوص ذاتها، دون النظر إلى السياقات الخارجية التي ترافقها.

وتظهر جهود المستشرقة الأوكرانية "سوزان ستيتكيفيتش" حول الشعر الجاهلي من خلال استقرائها لبعض النماذج الإنسانية الأصيلة أو الرموز التأسيسية من مثل طقوس العبور، والتضحية، والفداء والاحتفال والتفاوض والتوسل فهي بحسب رأيها المدخل الذي نفهم من خلاله الأنساق الثقافية العربية الجاهلية، وكانت لها وقفة مع "قصيدة مفضلية للشاعر"علقمة الفحل" التي حسب رأيها تعبر بشكل عن عملية الافتداء أو الإعتاق، يقول علقمة بن عبدة يمدح الحارث بن جبلة الغساني وقد وقع "شأس" أخو الشاعر في أسر هذا الملك:

وفي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ فَحُقَ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ
وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا قَبِيلَهُ مُسَاوٍ وَلَا دَانَ لِذَاكَ قَرِيبُ

تحقيق استسلام علقمة للملك الحارث، ونقض الشاعر ولاءه السالف للملك اللخمي المنذر ومبايعته الملك الغساني، من أجل إخلاء سبيل شأس الأسير، يؤذن بعقد صلة اجتماعية سياسية، فالشاعر يعلن أنه بلا حول ولا قوة، مهزوم وغريب، ويسترحم الملك راكعا بين يديه، فالقصيدة هنا بمثابة خضوع طقوسي، تحكي نسقا ثقافيا فرضته طبيعة الحياة من أجل البقاء، ومحتوى القصيد بهذا الشكل حسب سوزان يحمل بعد جماليا، فبهذا المنظور تترسخ أهمية الشعر الجاهلي وقيمته من وجهة نظر "سوزان" التي ترى في هذا الشعر ملامح الثقافة التي أنتجته، إذ وعينا بأنساق هذه الثقافة الظاهرة والخفية يعمق فهمنا بجماليات القصيدة الكلاسيكية.

أما جهود المستشرقة "ريناته" من خلال كتابها "دراسات حول شعرية القصيدة الجاهلية"، فقد اعتمدت منهج محايد في معاينة النص الشعري أشبه بالمنهج الفني، أو البنيوي وقصرت دراستها على مجموعة خاصة من الشعراء الجاهليين؛ هم النابغة، وعنترة، وزهير، وطرفة وعلقمة، وامرؤ القيس معتمدة على نسخة (الفرت) "دواوين الشعراء الستة الجاهليين"، معللة سبب اختيارها لهم بأن هؤلاء الشعراء ينتمون إلى الأدب العربي الأقدم والأشهر من نحو، ولأنهم يختلفون من حيث أصولهم وظروف حياتهم مما يمكن المؤلف من تناول المسألة الشعرية الفردية من نحو آخر، واستثنت المؤلفة شعر الرجز على اعتبار أنه ينتمي إلى نوع آخر، فهو شعر قصير مقارنة بأشعار الذين اختارتهم.

وكان تحليلها للنصوص الشعرية تحليلا موضوعيا فنيا قائما عل تفكيك البنية وتشريحها عبر قيمها الفنية والنفسية والدلالية؛ وتعرضت إلى بعض آراء النقاد الأوروبيين وتصوراتهم حول مفهوم القصيدة، لتغوص في بحر المصطلحات متسائلة فيما إذا كانت القصيدة تعود إلى القصد بمعنى الإرادة، أو محاولة الوصول، كما يرى (c. landberg) أم إلى البيت الشعري الطويل كما يرى (الفرت).

وأهم ما خالفت به الكاتبة التصورات العربية هو ما ذهب به ابن قتيبة، (الطلل، الرحلة، والمديح) وذلك حين تحدثت عن أشكال جديدة للقصيدة العربية لا عهد للدراسات النقدية العربية بها وهي قصيدة الذكرى وقصيدة الرسالة، وقصيدة الذكرى تأتي في سياق عن الماضي أي الحديث عن تجربة الشاعر عن المرأة، وبطولاته عن الحرب وكرمه.

أما موقفها من الخيال فقد تناولته في سياق حديثها عن الصورة. وقد رأت أن الثروة الهائلة من الصور الشعرية هي أهم خصائص أسلوب القصيدة الجاهلية، وتظهر هذه الثروة في مشاهد الوصفية بشكل لافت للنظر، لكن غزارة هذه الصور لا تعني بالضرورة عن الحد الاقصى للتأثير الشعري.

ومع ذلك فهي ترى أن الخيال الشعري الجاهلي ضيق وذلك عائد إلى طبيعة البيئة الجاهلية وهذا كلام فيه تجن على طبيعة العلاقة بين الشاعر الجاهلي والبيئة المحيطة؛ لأن الشاعر الجاهلي استطاع أن يتجاوز العلاقة السطحية بين البيئة ليحدث نوع من الاندماج التفاعلي في حالة تشبه المحاكاة النفسية، متغلغلا في عناصرها وذلك واضح من خلال الحوارات التي كان يجريها الجاهلي مع حصانه وناقته أو الحمار الوحشي وقد تجلى ذلك في أكثر قصائد الشعر الجاهلي.

إذن حاولت (ياكوبي) في دراستها- التي طالت البنية الهيكلية للقصيدة الجاهلية - الإجابة عن تساؤل افتراضي يبحث - عن بنية النص -وشكله -؛ فقامت بتناول النص وتحليله بطريقة منهجية تقوم على دراسة جوانية النص، أي من خلال دراسة أسلوبية أكاديمية. وبعد أن غاصت في ثنايا البنى التفصيلية للقصيدة العربية وجدت أنها تتخذ وحدة فنية تنتابها ولا تنفك عنها؛ وحدة تتمثل في انتقال الشاعر من النسيب إلى المديح متظللا بالوصف.

ونجد أيضا تجلت أهمية الشعر الجاهلي عند "جيمس تشارلز ليال" من جهة أصالته وصدوره حقا عن شعراء عاشوا في العصر الجاهلي، وقد تناول هذه القضية في سياق مناقشته بعض الدارسين الغربيين ممن شككوا في صحة هذا الشعر، وأن مقاطع بكاملها من أشعار شعراء هذه الفترة لفقها بعض العلماء وقدم دليلاً تاريخيا يؤكد صحة الأشعار وقائليها؛ حين قال "مشاهير الشعراء في القرن الأول الهجري: الفرزدق وجرير والأخطل وذا الرمة ساروا على نهج أجدادهم شعراء العصر الجاهلي واتبعوا نفس تقاليدهم بلا أي استثناء". وهذا ما أشار إليه ابن قتيبة في مواضع من كتابه "الشعر والشعراء"، وفي هذا السياق، وتأكيدا على أصالة الشعر الجاهلي يقدم "ليال" شاهدا على اعتراف بعض شعراء العصر الإسلامي ببراعة القدامى في معالجة بعض المواضيع، كالقصائد التي وصف فيها الشاعر الجاهلي عبيد بن الأبرص العواصف مثل قوله:

سقى الرباب مجلجل ال أَكْنَافِ، لَمَّاحٌ بُرُوقُهُ
حون تكركره الصبا وَهْنًا وَتَمريهِ خَرِيقَة

فالشاعر الفرزدق يشيد بذكر عبيد بن الأبرص في بعض قصائده حينما يأتي على ذكر العواصف والرعود، يقول ليال: "كما أن الفرزدق يذكر اسمه في نص مشهور بوصفه واحدا من الرواد العظام في هذا الفن الشعري".

بالإضافة إلى الدليل التاريخي يقدم "ليال" دليلا لغويا يثبت أصالة الشعر الجاهلي حيث إن هذا الشعر زاخر بمفردات تنتمي إلى استخدام لغوي قديم وأسلوب لم يكن شائعا حين تم تدوين القصائد ووضعها في دواوين أمثل الألفاظ التي يستعملها الشاعر عبيد بن الأبرص (أهل القباب، أهل جرد ثج، مجلجل، حرق البوارق، خرص، خلل، داوية، ديمومة، شنانة، رجبية...)، وهذا ما يفسر كثرة الشروح القديمة على دواوين الشعر الجاهلي.

ويؤكد المستشرق الفرنسي "ريجيس بلاشير" طرح "ليال" حول أصالة الشعر الجاهلي فيقول: "فإذا قارنا المقلدات بالآثار المؤلفة في النصف الثاني من القرن الأول (السابع الميلاد) كأثار جرير أو الفرزدق ظهرت على أنها نتاج للتقاليد الشعرية قبل الإسلام". إن اعتماد "بلاشير" على المقارنة بين الأشكال الشعرية القديمة وما ألف في النصف الثاني من القرن الهجري الأول من شأنه أن يجعله يطمئن إلى صدق التقاليد الشعرية التي تعود إلى ما قبل ظهور الإسلام.

أما بالنسبة لهوفمان أبيكر الألماني حاول عن طريق المنهج المقارن الوصول إلى بيان البعد الإنساني في الشعر الجاهلي، وأن ثمة علاقات تربط بين الأروبيين والشعر العربي القديم، وأول مدونة قديمة حسب رأي هذا المستشرق - تكشف القرابة بين العرب وغيرهم من الأمم السامية هي الكتاب المقدس.

ففي سفر أيوب يوجد العديد من المقاطع الوصفية التي تصف براري سوريا وحيواناتها تتناص مع أسلوب وطريقة شعراء الجاهلية في تصوير حيوان الصحراء من مثل: الناقة والفرس والحمار الوحشي والظباء، وقد برع شعراء في معالجة هذا الموضوع في الشعر الجاهلي من مثل: امرئ القيس، وطرفة بن العبد، وزيد الخيل ....

وثاني المدونات التي رأى "بيكر" أنها تتقاطع مع الشعر العربي القديم هي "نشيد الأناشيد" الذي ينسب إلى سيدنا سليمان عليه السلام وتحديدا تلك المقاطع التي تتحدث عن النساء والتغزل بهن وذكر وصلهن وهجرهن والتي توضع جنبا إلى جنب مع أبيات "النسيب" عند الشعراء العرب.

أما ثالث المدونات التي استشهد بما "بيكر" على تأثير الشعر الجاهلي في الشعر الانجليزي، وتحديدا القطع الشعرية الشعبية التي قامت شكليا وفق بناء القصيدة العربية، كقول الشاعر الإنجليزي:

كمْ مَرَّة تَطَلَّعْتُ إِلَى نُجُومِ الثّرَيَا وهي تَرْتَفِعُ مِنْ بَيْنِ الظِّلَالِ المرحة
وتَلْمَعُ كَسِرْبٍ مِّنَ اليَرَاعـــــــات مَنْضُودَةٍ بِسِلْكٍ فِضـــــــــــــــــــة.

تعكس كلمات الشاعر الانجليزي تأثير ترجمة السير وليم جونز للمعلقات السبع، وبخاصة امرئ القيس "قفا ن بك"، كما تعكس استلهام هذا الشاعر شكل القصيدة العربية الكلاسيكية في مقطع رحيل الشاعر عن دياره ووقوفه بديار الحبيبة رفقة الصحب، واستذكار أيام الوصال.

ويستدعي "بيكر" بيت امرئ القيس الذي يقول فيه:

إِذَا مَا الثُّرَيَّا فِي السَّمَاءِ تَعَرَّضَت تَعَرُّضَ أَثْنَاءَ الوِشَاحِ المُفَصَّلِ

وذلك من أجل إثبات أثر الشعر الجاهلي بصوره واستعاراته في قصيدة الشاعر الانجليزي. لقد كانت مقاربة "بيكر" نصوص الشعر الجاهلي بعناصر شعرية غربية من أجل إبراز السمات الإنسانية في شعرنا القديم، وأن المشاعر الطبيعية الإنسانية التي يحفل بها تقيم القرابة بين الأمم ذات الآداب القومية الأصيلة.